

## الفصل الخامس

### مؤرخونا القدامى ومواقفهم من بنى أمية

مراجعتنا القديمة - بصورة عامة - لا تنصف بنى أمية ، بل إن المؤلفين - فى الغالب - لا يرضون عنهم ، ويرون أنهم ظلمة وجبايرة ، ويذهب البعض إلى اتهامهم بالكفر ، حتى أولئك الذين يذكرون فتوحهم وما أضافوه إلى أرض الإسلام ، وهو يزيد فى مجموعته على ما تم فتحه فى العصر الراشدى ، حتى هؤلاء يشتمون فى الحكم على بنى أمية ، ولا يخطر ببالهم أن يضعوا الحسنات إلى جانب العيوب ، والإيجابيات إلى جانب السلبيات ، ثم يكون حكمهم بعد ذلك على هذا الأساس ، ونحن فى الحقيقة إذا وضعنا محاسن بنى أمية أمام عيوبهم ازداد قدرهم فى نظرنا ، فهم - دون شك - أكبر الأمم الفاتحة فى تاريخ الإسلام ، ولا نريد بذلك سعة الفتوحات فحسب ، بل نضيف إلى ذلك أن فتوح بنى أمية فى مجموعها هى أبقى الفتوحات ( بعد فتوح الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر وعمر وعثمان ) وأبعدها أثراً فى اتساع نطاق العروبة والإسلام ، فقد فتح الغزنويون فى المشرق فتحاً ضاع ، والغالبية العظمى مما

فتح الأتراك العثمانيون فى الغرب ضاع ، وما انتشر من الإسلام فيما فتحوه أقل بكثير مما كنا نتوقع ، ولم يستعرب منه شىء طبعاً ، أما بنو أمية فكانوا عرباً فاتحين ، وقد نشروا الإسلام والعروبة فى كل ما فتحوا ، ولولا ظروف طارئة حالت بين استعراب إيران وردتهم إلى الفارسية لكان شرق الدولة الإسلامية كله اليوم عربياً ، كما كان الحال مع غربها ، وما اتصل بهذه الفتوح فيما بعد من بلاد إفريقية الغربية والاستوائية ، ثم إن العروبة والإسلام لم يخسرا مما فتح بنو أمية إلا الأندلس ، وكانت لذلك ظروفه التى لا يسأل عنها بنو أمية ، وهم يظنون - رغم ما حدث للأندلس - أعظم الفاتحين العرب والمسلمين على الإطلاق .

غير أن الفضل العظيم لا يدخل فى الحساب عند قدماء مؤرخينا ؛ لأن غالبية هؤلاء المؤرخين مغرضون قبل أن يمسكوا بالقلم ، والغرض هنا عاطفى عام ، فهم كارهون لبنى أمية لما فعلوه برجال من العلويين ، ذرية على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وإذا نحن استبعدنا ضرورات التجرد العلمى قلنا إنهم محقون عاطفياً ، فهذه ذرية المصطفى - صلوات الله عليه - ونحن لا نطبق أن يمس أحد رسولنا وذريته بأدنى شىء ، ولكننا عندما ندخل دائرة الواقع التاريخى تخف فى نظرنا بشاعة هذه الجرائم ، فإن الخلافة خرجت من أواخر عصر عثمان عن نطاقها الدينى الإسلامى الذى وضعها فيه أبو بكر وعمر ، ومعاوية -

إلى حد ما - كان محققاً عندما طلب معاينة قاتلى عثمان ، فهذه جريمة بشعة ، ولا يمكن - من الناحية الشرعية الإسلامية - أن تمر هكذا ، دون أى تحقيق ، ولم يكن المطلوب أن يسلمهم الخليفة لمعاوية ، بل كان المطلوب أن تضع الدولة يدها عليهم وتعاقبهم . وهذه مسئولية رئيسية من مسئوليات الحكم فى الإسلام ، ولكن الدولة عندما تولى على لم تفكر فى هذا الموضوع بالصورة التى أرادها بنو أمية ، وكان رأى على هو أن يقضى أولاً على خروج الزبير وطلحة عليه ، بل هى حتى لم تضعه موضع العناية ، ومادامت الدولة قد تراجعت - ولو مؤقتاً - عن واجبها فى هذه القضية فقد أعطت أولياء القتل الحق فى أن يطالبوا بدمه ، وهذه المطالبة هى الباب الذى دخل منه بنو أمية باب السياسة .

وأنا - بصفتى مسلماً ومؤرخاً معاً - أسأل نفسى دائماً : لماذا لم يفتح على باب التحقيق فى أمر قتل عثمان ؟ والسؤال هنا يصدر عن قلب يحيى علياً وآله ؛ لأن الصحابة كانوا إذ ذاك موجودين وقادرين على القيام بهذا التحقيق . ولم يكن من العسير العثور على قتلة عثمان ، فهذه جريمة خطيرة ارتكبت فى وضوح النهار ، وكان لابد من تكليف جماعة من أهل الشورى التحقيق فى الأمر ، وحتى إذا لم تضع هذه الجماعة يدها على القتلة فإنها تكون قد قامت بواجبها على الأقل ، نحن لا نرى ما يمنع من أن يشترك معاوية أو من ينيبه عن نفسه فى لجنة

التحقيق حتى يرى أن الأمر جاد ، فقد كان معاوية نفسه صحابياً ، وما نظنه كان يفكر في البداية في الخلافة ، ولكن تطور الأحداث في عصر على وتصرف على نفسه أدى إلى ذلك ، وسترى أن النصوص هنا مضطربة جداً ، وأن الوصول إلى حقيقة ما جرى من خلالها يكاد يكون مستحيلاً ، ونلاحظ منذ البداية أن علياً لم يعط الشورى حقها الذي كان لها أيام الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ، وأنه كان يتصرف في الغالب من وحى نفسه ، ويبدو أن خروج طلحة والزبير وعائشة عليه قد فاجأه وساءه وأضعف مركزه منذ البداية ، فرأى أن يقضى عليه قبل كل شيء ، وسنروى له كلاماً واضحاً في هذا المعنى .

وسنرى أن هذه العوامل كلها ، وخروج على من المدينة في طلب طلحة والزبير وعائشة كان من أكبر أسباب ضعف مركزه؛ لأن المدينة كانت عاصمة دولة الإسلام ، ولها جلالها الذي كان جديراً بأن يجعل الأمة كلها تلتفت حول على ، كما سبق أن التفت حول أبي بكر عند الردة ، وهو نفسه أحس بذلك عندما استقر في الكوفة ووجد نفسه وسط رجال لم يعرفوا قدره ؛ لأن المسلمين فيها كانوا من المتأخرين ممن لم يعرفوا قدر الصحابة أو عظم مكانتهم ، وقد رأينا ما فعلوه في عثمان والكوفة .

على أي حال لم تكن منذ ميلادها إلى زوالها مدينة بالمعنى الصحيح للمدينة ، إنما هي كانت محطة تنزل فيها القبائل المهاجرة ريثما تعرف إلى أين تهاجر ، والموجودون فيها اليوم

قد لا يكونون فيها غداً : رحلوا إلى مهاجرهم ولن يعودوا إليها ،  
وفى الغالب يحل فيها غيرهم من نفس القبائل ، ولا يحس  
الإنسان بهذا التغير الحاسم ، وقد شكى على بن أبي طالب من  
نتائج هذه الظاهرة ، وأما أهل الكوفة الباقيون فيها بصورة  
دائمة فكانوا أهل الخدمات من الصناع والتجار ممن لا تستغنى  
عنهم المدن ، وربما كان سبب عدم تنبهه على بن أبي طالب إلى  
هذه الحقيقة هو أنه كان عظيم الثقة فى نفسه ، ثم إنه كان  
محاطاً دائماً برجال من أنصاره المخلصين ، ولكنه وقع شيئاً  
فشيئاً - وخاصة بعد معركة الجمل - فى أيدي رجال من  
محترفى السياسة من زعماء البدو القبليين من أمثال القعقاع بن  
عمرو ، وسُعر بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ،  
والحارث بن سريج ، ومن إليهم ممن لم يعرفوا قدره أبداً ،  
وهؤلاء جميعاً لم ينفعوهم فى شىء بل أضروا به ضرراً بليغاً ،  
ومن هؤلاء ظهر الخوارج ممن حسبوا أنفسهم أصدق تديناً من  
على .

ولدينا عن الأحداث التى وقعت خلال هذه الفترة الخطيرة  
من تاريخ الإسلام نصوص كثيرة جداً ، بعضها لا يستحق الثقة  
مثل الإمامة والسياسة للدينورى ، ومن أسف أن هذه المراجع  
كانت عظيمة الأثر فى الصورة التاريخية فيما بعد ، والسبب  
الأساسى فى ذلك هو أن نصوص المرجعين المطولين الجديرين  
بالثقة هنا ، وهما الطبرى ( ج ٤ ص ٤٥٠ وما بعدها ) ومعركة  
صفين لنصر بن مزاحم المنقرى مطولة جداً ، وهى متضاربة

ومتناقضة ، ومن العسير علينا - كما سنرى - أن نخرج منها  
بخط واضح لسير الحوادث ...

وقد قرأت هذه النصوص مرة بعد أخرى ، وفي فترات  
مختلفة ، فلم أخرج بنتيجة ، ورغم الصبر وطول البال وإخلاء  
نفسى فى بعض المناسبات من كل عاطفة - وخاصة عاطفتى  
الهاشمية ومحبتى المتأصلة فى نفسى لعلى بن أبى طالب - فلم  
ينفعنى ذلك فى كثير ، وظللت إلى يومنا هذا غريباً عن  
الحوادث، وظلت هى غريبة عنى ، وإليك الخبر التالى الذى  
يرويه الطبرى عن رواته ( ٤ / ٤٥٥ ) : كتب إلى السرى عن  
شعيب عن سيف ( ابن عمر ) عن محمد وطلحة قالوا : بلغ علياً  
الخبر وهو بالمدينة باجتماعهم ( يريد طلحة والزبير والسيدة  
عائشة ) إلى البصرة ، وبالذى اجتمع عليه ملوهم ( من قتال  
على ) وبلغه قول عائشة ، وخرج على يبادرهم فى تعبئته التى  
كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين  
والبصريين متخفين فى سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم  
فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقبه عبد الله بن سلام فأخذ  
بعنانه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله لئن  
خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً ،  
فسبوه ، فقال ( على رضى الله عنه ) : دعوا الرجل ، فنعم الرجل  
من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسار حتى انتهى إلى الرّبذة فبلغه  
ممرهم ( يريد أنهم مروا بالرّبذة وساروا فى الطريق إلى  
العراق ) .

وهذا كلام يضم أشياء لم نسمع بها من قبل ؛ فإن علياً - كما نرى من الخبر - كان يريد أول الأمر الخروج إلى الشام ، وهذا - فيما نرى - كان الطريق الأمثل له ، فقد رفض معاوية الطاعة له ، وكان لابد من القضاء عليه بأسرع ما يمكن حتى تنتهي هذه الفتنة . وهذا عبد الله بن سلام - وهو من خيرة الصحابة - ينصح علياً بالأى يترك المدينة ، ويقول : إنه إذا خرج منها فلن يعود إليها ، ولن يعود إليها سلطان من المسلمين أبداً ، وهذا أيضاً كان رأياً صائباً ، وكان من الممكن لعلى - بصفته أمير المؤمنين - أن يبعث إلى الشام من قواده بقوة ضاربة حاسمة فتقضى على معاوية فى أقل وقت ممكن ، ولكن علياً لم يسمع لكلام عبد الله بن سلام ، ولابد أنه كان هناك كثيرون آخرون على رأيه ، وإنما رأى أن يتبع طلحة والزبير وعائشة ؛ لكى يقضى عليهم ، بل لكى يردهم عن الخروج ، ومن هذه الفكرة أتاه بلاء عظيم ، ثم إننا نرى أن القوم الذين أرادوا أن يأخذوا علياً إلى الكوفة سبوا عبد الله بن سلام ، فكانهم كانوا أصحاب أغراض من وراء خروج على إلى الكوفة ، ولكن أغرب شىء فى تصرف على - رضى الله عنه - هو عدم تفكيره فى الكلام الحكيم الذى قاله عبد الله بن سلام ، وكأنه كان يتصور أنه لا يلبث أن يأخذ طلحة والزبير وعائشة ويعيدهم إلى المدينة ثم يفرغ لمعاوية .

ويأتينا الطبرى بعد ذلك بخبر غريب يضم فقرة نحن

جديرون بأن نطيل التأمل فيها . والطبرى يقول هنا .. رواية عن رواته ورداً على أسئلة وجهها إليه اثنان من أهل الكوفة خرجا للعمرة فبلغهما مقتل عثمان . ولقيا عليا فى الربذة فوجها إليه بعض الأسئلة ( سيرد ذكرها فى الإجابة ) فقال على : « أى بنى ، أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، أما قولك : لا تباع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير ( أى لماذا خرجت فى طلبهما ) فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام ، ووالله ما زلت مقهوراً مذوليت منقوصاً لا أصل إلى شىء مما ينبغى ، أما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بمن قد لزمنى أو من تريدنى ؟ ( يريد من تريدنى أن أكون ؟ ) أتريدنى أن أكون مثل الضبع ويقال دياب دياب ( أى تنادى لتخرج من مخبئها ) ليست ها هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج ، وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنى . »

وهذا كلام ما قرأته إلا زاد حبى لعلى بن أبى طالب وحرزنى على ما أصابه ؛ فقد كان والله رجلاً على إيمان بالغ وصدق عميق . ولكن يبدو أنه لم يكن يثق كثيراً فيمن معه ، وربما كان أفضل له لو وثق . وهذه الثقة كانت أمراً يحتاج إلى سياسة ، وعلى الذى عانى الكثير - كما رأينا - منذ تولى ، كان يريد أن يثبت مكانه دون اللجوء إلى السياسة ، وكان أفضل لو لجأ إلى

السياسة في تلك المعركة التي خاضها مع معاوية ورجاله،  
وكانوا أهل سياسة قبل أى شىء آخر .

ولو أنه أقام في المدينة وتصرف منها - كما قال عبد الله بن  
سلام - لأتته الجنود من كل مكان ، بدلاً من أن يذهب هو إليها ،  
فإن مقام رئيس الدولة في عاصمتها يخلع عليه مهابة وجلالاً  
وقوة ، والأخبار تدل على أن قبائل العرب بدأت تقبل على عليّ  
عندما قرر الخروج لحرب خصومه ، فقد روى نصر بن مزاحم  
المنقرى أن علياً عندما مر بالربذة - فى طريقه إلى الكوفة - أتته  
جماعة من طيء ، فقبل لعلي : هذه جماعة من طيء منهم من  
يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك ، قال : جزى  
الله كلا خيراً ، وفضل الله الجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ،  
ثم دخلوا عليه فقال علي : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك  
بكل ما تحب ، قال : جزاكم الله خيراً ؛ فقد أسلمتم طائعين ،  
وقاتلتهم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين . فنهض سعيد  
ابن عبيد الطائى فقال : يا أمير المؤمنين . إن من الناس من يعبر  
لسانه عما فى قلبه ، وإنى - والله - ما كل ما أجد فى منه يعبر  
عنه لسانى ، وسأجهد وبالله التوفيق ، أما أنا فسانصح لك فى  
السرى والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن . وأرى لك من  
الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك ؛ لفضلك وقرابتك ، قال :  
رحمك الله ! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك ، فقتل معه بصفين .  
رحمه الله .

وبعد قليل نقرأ عند الطبرى أن قبيلة أسد هى الأخرى  
عرضت أن تسير مع على . قال الطبرى راوياً عن أصوله : فلما  
نزل بفيد ( فى منتصف الطريق من المدينة إلى الكوفة وفى  
محاذاة المدينة ) أتته أسد وطىء فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال :  
فى المهاجرين كفاية ، والسؤال الآن : لماذا رفض على أن تسير  
معه طىء وأسد ؟ ولو أنه أرسل إلى اليمن وغيرها لأتته ، فقد  
كان مركزه عظيماً جداً فى عالم الإسلام ، ولم يكن فى أمة  
الإسلام من يعدله بل يقاربه ، ولو أنه قر فى المدينة وقاد  
معركته منها لكان النصر حليفه دون شك . ثم لماذا قال : فى  
المهاجرين كفاية ؟ وأين الأنصار ، وهم أعز رجاله وأحب الناس  
فيه ؟ ولكنه كان يسير بالفعل فى طريق مجهول لكثيرين من  
معاصريه ، قال الطبرى رواية عن أصوله : ولما أراد على  
الخروج من الربذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع  
فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شىء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟  
قال: أما الذى تريد وننوى فالإصلاح منا إن قبلوا منا وأجابونا .  
قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق  
ونصبر . قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قال :  
فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم . قال : فنعم .

وقام الحجاج بن غزية الأنصارى فقال : لأرضينك بالفعل  
كما أرضيتنى بالقول ، وقال :

دراكها دراكها قبل الفوت

( أى أدركوها قبل أن تخرج من أيديكم ) .

وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسى إن هبت الموت

( ومعنى : لا وألت نفسى : لاسلمت نفسى ) .

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً .

وهذا كله كلام غير مفهوم . بل إننا إذا فهمنا منه شيئاً فهو أن علياً لم يكن فى مسيرده هذا واضحاً لا لنفسه ولا للآخرين . ثم إننا نسأل : ما الذى أراد على بقوله : فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ؟ هل يريد الصلح ؟ وعندما يقال له : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، فيقول الرجل : فنعم إذن ، فإذا كان على مستعداً لأن يمتنع عن طلحة والزبير وعائشة إذا لم يتركوه فلماذا لم يكتب إليهم بذلك وهو مستقر فى دار خلافته بالمدينة وينتظر رأيهم ؟

وبقية كلام الطبرى تدل على أن الناس فى كل مكان كانوا مع على ، وأن الجميع كانوا معترفين به أميراً للمؤمنين ، وإن كان الكثيرون منهم يطالبون علياً بأن يخرج قتلة عثمان ، وكان هو مستعداً لذلك ، ولكنه - لأمر ما - كان يرى أن أول ما ينبغى عليه هو القضاء على فتنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

وعائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنهم - ولا ندرى ما الذى كان يخافه منهم والناس كلهم معه إلا معاوية ؟ حتى معاوية نراه صامتاً تماماً فى هذه المرحلة من الخلاف ، وما نظن أنه صمت وثبت مكانه إلا أنه خاف على نفسه وعلى بنى أمية بعد أن عزله على عن الشام وكل ولاة عثمان على غير الشام ، والنصوص تقول : إن أمر الزبير وطلحة وعائشة لم يكن بشيء ، وإن علياً لو قر مكانه فى المدينة واجتهد فى القضاء على معاوية لانتهى الأمر .

بل إننا نرى من حديث الطبرى ونصر بن مزاحم أن خروج على إلى الكوفة والبصرة جعل الناس يتصورون أنهم أمام فتنة حقة ، ثم إنه عندما قرر المسير لم يشاور أحداً ولا هو عنى بأن يفهم الناس سبب مسيره فدخل - هو والمسلمون - فى فتنة خطيرة حقاً .

★★★